الرجل الذي نحلم به

كيف يكون الرجل (أو المرأة) الذي شأنه أن يتجلّى ذكره خالد على الزمان، مشرق كالشمس، عاطر طاهر كيتفتسج الروض وزنابق الحقل؟..

المجاهد الكبير عبدالرحمن الكواكبي..

حاز ابن حلب البار، اكليل النصر، ورفع لواء الفوز والظفر، ومشى إلى غايته المثلى وهدفه الأسمى، من غير أن يعجزه صعب، أو يغرّه جاه، أو يثبط من عزيمته تهديد أو وعيد.

هذا الفيلسوف القدير، والعلّامة الكبير، والسائح المصلح الشهير، كان داعية الإصلاح، ورجل العمران، وموقظ الشرق العربي من غفوة الخمول والاستسلام.

فمن يتصفح مؤلفيه: «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» يتبيّن له جليّاً ان الكواكبي، ابن حلب الشهباء هو نابغة العروبة والإسلام، ونجم سوريا اللامع في سماء العزّة والإباء.

ثار الكواكبي على الظلم والارهاق، وصرخ في وجوه الجائرين صرخات عالية قوية، وناضل في سبيل الحرية والمحافظة على الكيان القومي، وأوقد جذوة الحمية في نفوس العرب، الذين كانوات يتحفزون للوثوب على الطغاة المستبدين.

نصح وأرشد، وبيَّن لأبناء قومه عاقبة الطغيان وجور السلطان، وأظهر عناد روحه الأبيّة، وآلى على نفسه، أن يرجع كبرياء الولاة والحكام، الى نصاب الحق والعدل. غير إن أولئك الحكام والولاة، كانوا يزدادون قسوة وعتوّاً. وكان المصلح الفيلسوف يزداد قوة وصلابة وجرأة أمام السلطان الجائر والحكم القاهر.

نبحث عن رجلٍ كالكواكبي يكون عبقريا حرّاً، تتجلّى حياته كلها فضل ونبل، وكلها عِبَر ثمينة، وعظات رفيعة بليغة. نبحث عن فيلسوف يقَوم بخدمات عظيمة رسمية وغير رسمية، ويحمل مشعل الحرية، ويرفع لواء الجهاد، ويقاوم الظلم والاستبداد، ويقف في وجه كل سلطان رغم غطرسته وطغيانه!

أين ذاك الإنسان الفذّ، ذاك الينبوع الفيّاض الذي يزداد كل يوم وفي كل مجلس علماً وحكمة ومعرفة، ويكون له فكر أبهى من الشمس ويكون على إلهام وصدق حتى كأنه يوحَى إليه.. يجمع له الله حتى ملاحة الوجه وحسن السّمت وجمال الطلعة وكمال الخلق وسعة الصدر وعلو الهمّة وكبر النفس ودوام التفكير لا يترك لجسده راحة واستجماماً.

يطوف المسؤول ذاك المدن والقرى والأرياف والسواحل ويجتمع بالعلماء والمفكرين من أبناء أمته، ويحثّهم على جمع كلمتهم وشدّ عرى وحدتهم، انه خير رسول مصلح اجتماعي سياسي، يوقظ شعبه - لا العكس! - ويؤدّي للمجتمع أصدق الخدمات، ويحقق أمنيته الغالية وآماله العذاب، متى نرى بأم العين ذلك الرجل المنشود؟

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه